

دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا .

أ/مصطفى سعاد

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الجزائر 2

مقدمة:

إن المتتبع لتاريخ السودان الغربي أو كما يحلو للبعض تسميته بغرب إفريقيا في نهاية القرون الوسطى وبداية العصر الحديث ، يلاحظ أن الدين الإسلامي قد استطاع في فترة وجيزة أن يستحوذ على قلوب الأفارقة الذين تركوا الوثنية واعتنقوا الإسلام.

وكان من نتائج انتشار الحضارة العربية الإسلامية ، انبثاق ممالك إسلامية لا سيما مملكتي مالي و سنغاي، وبروز دولة الفولاني بزعامة عثمان بن فودي (1) في شمال نيجيريا ودولة ساموري توري في شمال ساحل العاج.

و الجدير بالذكر أن هذه الممالك و الدول قد اتخذت من النظم العربية الإسلامية نموذجاً في الحكم، ومن ثمة ازدهار الحياة العلمية و تكثيف التبادل العلمي و الثقافي بين غرب إفريقيا و العالم الإسلامي ، الأمر الذي ساعد على انبثاق حضارة واضحة المعالم في هذا الجزء من القارة السمراء.

ونظراً لتقهقر الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ابتداء من نهاية القرن السادس عشر ميلادي بسبب عوامل سياسية وسوسيو-اقتصادية لها علاقة مباشرة بالحروب الطاحنة بين الأفارقة أنفسهم و التهديدات الخارجية التي تجلت في حملة السلطان المغربي المنصور الذهبي على غرب إفريقيا، وظهور البرتغاليين على مسرح الأحداث بفتح مراكز تجارية على طول الشريط الساحلي المطل على المحيط الأطلسي وتشجيع تجارة الرقيق، إلا أن بعض الزعماء الأفارقة أرادوا إحياء الممالك الإفريقية في غرب إفريقيا بالاعتماد على ميكانيزمات سياسية وثقافية ودينية تتجلى في مواصلة رسالة نشر الحضارة العربية الإسلامية و القضاء على استفحال الوثنية في أجزاء من غرب إفريقيا لا سيما نيجيريا . ولعل أهم حركة جهادية في بداية القرن التاسع عشر هي تلك التي قادها عثمان بن الفودي الذي وحد شمال نيجيريا تحت رايته وأرسى دعائم دولة اعتمدت على النظم العربية الإسلامية في مسألة الحكم، وعلى هذا الأساس، ارتأينا في بحثنا هذا تسليط

الأضواء على حقبة زمنية برز من خلالها زعماء أفارقة قرروا مواصلة تبليغ الرسالة في غرب إفريقيا وكان من أبرزهم الشيخ عثمان بن الفودي.

وأيا ما كان الأمر، فسنحاول من خلال هذا المقال التطرق إلى تطور الحركة العلمية في غرب إفريقيا مع إبراز الدور الذي لعبته الحضارة العربية الإسلامية في عصرنة المجتمع الإفريقي لاسيما في فترة إحياء الممالك الإسلامية في بداية القرن التاسع عشر و الدور الذي لعبه عثمان بن فودي في نشر الإسلام في بعض المناطق النيجيرية التي تمسكت بوثنيتها. وعلى هذا الأساس، فإن تبني الشيخ عثمان بن فودي للنظم العربية الإسلامية في مسألة تسيير دولته في ما يعرف بشمال نيجيريا، كان يهدف إلى العمل على تطوير المجتمع من خلال بعث حركة علمية تواكب التحولات التي كان يشهدها السودان الغربي باستفحال تجارة الرقيق وظهور الخطر البريطاني الذي أضحى يهدد غرب إفريقيا بصفة عامة ونيجيريا بصفة خاصة.

ومن هذا المنطلق، سنحلل تحليلا دقيقا وعلميا دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا مع التركيز على فترة إحياء الممالك الإسلامية، وعليه ولإعطاء هذا الموضوع حقه تتبادر إلى الذهن مجموعة من التساؤلات نراها ضرورية لتفسير الأحداث و استخلاص النتائج. فما هو الدور الذي لعبته الحضارة الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا؟ وهل ساهمت حركة الكتابة و التأليف في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا؟ وما هي الميكانيزمات التي اعتمدها الشيخ عثمان بن فودي في بعث الحركة العلمية في دولة الفولاني؟ وما هي آثار هذه الحركة على مستقبل غرب إفريقيا؟

وانطلاقا من هذه التساؤلات، سنحاول في هذه الدراسة استخلاص النتائج، وذلك قدر المستطاع إلى إزالة الكثير من الغموض الذي يكتنف تاريخ إفريقيا بشكل عام وغربها بشكل خاص.

1 - الحركة العلمية في غرب إفريقيا:

1-1- حركة الكتابة و التأليف :

ازدهرت الحركة العلمية واشتهرت منطقة إفريقيا جنوب الصحراء بكثرة علمائها وفقهائها وأئمتها، واحتفظت بمكانتها العلمية والثقافية - حتى في أوقات ضعفها السياسي - كمراكز كبرى للثقافة والعلم.

و إضافة لدراسة القرآن الكريم والشريعة الإسلامية ، ازدهرت أيضا العلوم التي شملت جميع أمور الحياة كمناهج النحو والعلوم الفلسفية والرياضيات والمنطق وعلم النفس والهندسة والفلك والأدب والطب والتاريخ والرحلات وفن الكتابة (الخط) والتراجم.

تأسست في غرب إفريقيا مراكز إشعاع ثقافي إسلامي كبيرة ، ومن أبرز المدن التي ارتبط اسمها بالعلم نجد تمبكت و جاو وجنى وصنعى و صكوتو وحمد الله، حيث استفاد حكامها وشيوخها كأحمدو لوبو و الشيخ عثمان بن فودي و محمد بيلو العلماء من شتى الأنحاء ووفروا لهم كل أسباب العيش طلبا للعلم.

وكان العلماء يحضرون كتجار و حاملي علم فنشروا علمهم الغزير وثقافتهم الإسلامية الواسعة فازدهرت الحياة الثقافية في كافة المنطقة.

عرفت مدينة تمبكت (2) حركة علمية زاخرة واشتهرت بكثرة العلماء والفقهاء والأئمة الذين كانوا يعاملون معاملة كلها احترام وتقدير وتعظيم (3) ، فازدهرت الحركة العلمية وأقبل الناس على اقتناء الكتب رغم ارتفاع تكاليفها خصوصا إذا ما علمنا أن هذه الكتب تتناول كل فروع العلوم الإسلامية(4).

وفي هذا السياق ، تطورت حركة التعليم في غرب إفريقيا بفضل المدارس التي أنشئت في تمبكتو وسوكوتو وتوافد عليها الطلاب و الأساتذة ن كما شهدت لأول مرة اتساع التعليم الجامعي ، ومن ثمة ساهم الأساتذة الوافدين من بلدان المغرب العربي في تنشيط التعليم وتعميقه، وشرع هؤلاء العلماء في الإنتاج ، فكتبوا شروحا لعدد من المؤلفات الهامة التي كتبت خارج السودان(5).

وما يمكن قوله في هذا المجال ، أن العلماء قد عكفوا على تعليم اللغة العربية فتعلموها لغة و أدبا، و ألفوا بها كتبا كثيرة في شتى الفنون، وأنتج العلماء مؤلفات كثيرة كما ألفوا كتبا و رسائل عاجلوا فيها الكثير من المشكلات الدينية و الاجتماعية و السياسية، مثل مؤلفات الشيخ محمد بلو ككتاب الطب النبوي، و القول السنا، و كتاب محمود تكرر قرى الأحبة في بيان سر الأسماء.

لقد حوت جميع هذه الكتب معلومات وافية في الطب و طرق علاج بعض الأمراض، وكان أيضا لبعض العلماء ميول أدبية ساعدتهم على التأليف في مجال الشعر النثر.

ويذكر أن عددا من معاهد العلم التي نشأت في كنف الخلافة الصكيتية و انتشرت في معظم ولايات الدولة و أجزاءها المترامية، و أول هذه المعاهد و أهمها معهد صكت أو معهد الشيخ عثمان الذي

كان من أكبر المعاهد الدينية، و الذي تفرع منه عدة فروع لا في صكت وحدها بل في جميع أنحاء الدولة، إلا أن نشاط هذا المعهد بدأ يتضاءل بعد وفاة محمد بلو عام 1837، رغم الجهود الكبيرة التي بذلها ابنه علي الكبير عام 1842.

كما أنشئت معاهد أخرى في صكت نفسها أهمها معهد غداد بن ليم الذي أسس في عهد الشيخ عثمان و كان من أكثر المعاهد نشاطا في نشر العلم، و قد كان مؤسس هذا المعهد عالما متفنا و كرس جهده في تطوير هذا المعهد، و بعد وفاته خلفه ابنه عبد القادر في التدريس في هذا المعهد.

و قد ظهر في هذه الفترة عددا من المعاهد التي كانت تدل على الرقي الفكري مثل معهد الشيخ عبد الله بن فودي في غوند، بالإضافة إلى معهد الحنبلين في كاتيسنا، و معهد جوما في زاريا، و معهد حسن غرن في أداماوا، و معهد المعلم دندو في بيدا.

ساعدت هذه الأجواء العلميّة والدينيّة على إيجاد لفيّف من العلماء والفقهاء في هذه البلاد الذين أسهموا في نشر الإسلام و بثّ ثقافته، و من بين هؤلاء العلماء الذين برزوا في مراحل مختلفة من الزمن و الذين كان لهم الدور الكبير في ميدان العلم والتأليف نذكر محمد بن عبد الكريم المغيلي، الذي ترك العديد من المؤلفات التي كان لها بالغ الأثر في الحياة العلمية والثقافية في غرب إفريقيا، نذكر منها البدر المنير في علم التفسير، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، شرح مختصر الخليل، مفتاح النظر في علم الحديث، شرح جمل الخونجي في المنطق، ففي نفس السياق قام المغيلي بمراسلة السيوطي وانتصر لأراء أرسطو في المنطق، فتأثر بأرائه الكثير من علماء إفريقيا وساروا على منهجه ونشروا مؤلفاته التي تدرس إلى اليوم(6).

كما نذكر من علماء المنطقة، أحمد بابا التنبكتي(7)، كما شهد الغرب الإفريقي عددا لبأس به من العلماء لازالت آثارهم العلمية إلى اليوم مثل:

1- القاضي محمد بن أحمد التّادخي من علماء كسينا، لقي المغيلي و زكريا الأنصاري و عبد الحق السنباطي واللقاني وغيرهم، توفي سنة (930هـ).

2- الشّيخ عبد الله ثقة الفلاني الكشناوي: رحل إلى أغدز، وفان، وتكده في طلب العلم، ثمّ رجع إلى كسينا، و تصدّى للتدريس بها، له منظومة في المواعظ والحكم في نحو ألف وخمسمائة بيت أسماها (عطيّة المُعطي)، ويقال: إنّه أوّل من حفظ الكتب السنة في هذه البلاد.

3- الشيخ العاقب بن عبد الله المسوفي، الذي تتلمذ على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، له دور بارز في الحياة العلمية في غرب إفريقيا وذلك لما تميز به من إنتاج فكري تجاوز حدود الغرب الإفريقي، ومن آثاره العلمية، أحوية الفقير من أسئلة الأمير، وهي مجموعة فتاوى استفتاه فيها الأسكيا محمد الكبير، وكذلك تعليق على قول الخليل، وقد ذكر الشيخ أحمد بابا التمبكتي كل مؤلفاته في كتابه نيل الابتهاج لتطوير الديباج(8).

4 - الشيخ جبريل بن عمر: شيخ شيوخ زمانه وهو الرجل الذي أثار في الشيخ عبد الله بن فودي، وكان له دور وجهد بارز في محاربة البدع والفساد في بلاد (الهوسا). يقول عنه الفودي في كتابه "إبداع النسخ فيما أخذت عن الشيوخ": "وله شهره في العلماء شرقا وغربا تغني عن ذكر شمائله، أخذت عنه كتب أصول الفقه، وجمع الجوامع وشروطها، وقرأت عليه بعض تواليفه"(9). ثم جاء الشيخ عثمان بن فودي الذي يعتبر امتدادا طبيعيا لهذه الحركة العلمية الدينية، التي تعتبر في نظره السلاح الحقيقي في وجه النهوض من الخروج من الجهل من جهة و التصدي للغزاة الأوروبيين من جهة أخرى.

2-الحركة العلمية في دولة الفولاني ودور الشيخ عثمان بن فودي فيها:

تطورت الثقافة العربية الإسلامية و ازدهرت في زمان الشيخ عثمان بن فودي و صار الشيخ إماما للمسلمين ومجددا لأمر الدين فظهرت مجموعة كبيرة من المؤلفات للشيخ و أتباعه لتوجيه الرعية و حل مشاكلها و إرشادها في أمور الدين، كتبت هذه المؤلفات بالعربية و لغة الفلاني و لغة الهوسا خدمة للمسلمين.

و قد أورد البروفيسور ميري لاست في كتابه خلافة سكتو، أورد 88 كتابا للشيخ عثمان دان فودي في مختلف العلوم الشرعية و العربية و قضايا المجتمع، ثم 98 كتابا للأمير محمد بيلو(10)، بن عثمان دان فودي الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه الشيخ عثمان بن فودي، و مؤلفات أخيه عبد الله دان فودي التي بلغت 77 كتابا و قد تزيد كثيرا عن هذا العدد (كان يلقب بعربي السودان).

كانت كتبه بلغة عربية مبينة، تضاهي لغة أعظم الكتاب شعرا و نثرا و نحوا و صرفا و عروضاً و فقها و حديثا و في التوحيد، و خير دليل على هذا الإنتاج الغزير لهؤلاء العلماء و غيرهم في ميدان الثقافة العربية الإسلامية، الأعداد الكبيرة من المخطوطات التي جمعها المرحوم الأستاذ بشير عثمان من القرى و المدن و قد أودعها دار الوثائق بسكتو بعد أن نظمها و جعل لها نظم فهرست حديثة طبقا لما هو موجود

في أكبر المكتبات و دور الوثائق في العالم، و لكن يلاحظ بعد سقوط الدولة السكتية بدخول المستعمر أصاب الثقافة العربية الإسلامية ضعف شديد و انهيار نتيجة للحرب المنظمة التي شنها الاستعمار ضدها، و ذلك بغرض فرض لغته بالقوة، و كتابة لغة الهوسا بالحرف اللاتيني بعد أن كانت مكتوبة بالحرف العربي. ثم تحول التعامل في دواوين الدولة إلى اللغة الإنجليزية، و حصرت العلوم الإسلامية في نطاق ضيق، و قد استمر هذا الوضع في نيجيريا حتى الاستقلال.

و يعتبر الشيخ عثمان دان فودي أن أهم طرق الإصلاح تعتمد على ضرورة إبلاغ دعوته لجميع الناس، و تعتبر الكتابة أهم الطرق التي تحقق هذا الهدف لذلك لم يدخر الشيخ عثمان جهدا في التأليف وباللغتين العربية و الفولانية و غيرها مما يستطيع إليها سبيلا.

فقد بلغت مؤلفات الشيخ عثمان ما يفوق الألف بين الكتب والمقالات في مختلف المجالات السياسية، الاجتماعية والثقافية خلال فترة دامت الأربعين سنة حسب ما ذكره ابنه محمد بللو في كتابه "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور" (11).

كما يذكر بللو أن مؤلفات والده يمكن أن تقسم إلى ثلاثة أقسام :

أ- مؤلفاته خلال الفترة بين 1774 إلى 1804، والتي عاجلت قضايا الإيمان و الكفر في الغالب، وإحياء السنة النبوية، ومحاربة البدع، و حقوق المرأة المسلمة، و حملت مؤلفاته حول هذه القضايا العناوين التالية:

* إحياء السنة وإخماد البدعة

* بيان البدعة الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية

* تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ المجلس من أجل تعليم النساء الفرائض الدينية

ب- مؤلفاته خلال الفترة من 1804-1810: و تناولت أعماله في هذه المرحلة موضوعات ومسائل فكرية عقائدية مثل دواعي الهجرة و الجهاد، ظهور المهدي المنتظر، مبادئ العدالة الاجتماعية.....ومن تلك الكتب:

* بيان وجوب الهجرة

* النبأ الهادي إلى أخبار الإمام المهدي

* أصول العدل لأوليات الأمور وأهل الفضل

ج- مؤلفات المرحلة بين 1810-1817: التي عالج من خلالها الأصول الفكرية للمؤسسات الإسلامية التي تقوم عليها الدولة المبنية على قواعد الشريعة في ضوء القرآن و السنة وممارسات الصحابة، كما بررت هذه المؤلفات قيام الجهاد في تلك المنطقة من إفريقيا و الأهداف التي يرمي إليها و أهم تلك المؤلفات:

* كتاب الفرق

* نجم الإخوان

* سرج الإخوان

* نصيحة أهل الزمان (12)

ومما يمكن ملاحظته من خلال فترات وعناوين هذه الكتب أن الشيخ عثمان أراد أن يتبع من خلالها منهج القرآن الكريم في النزول و سيرة النبي الكريم في بناء دولته، حيث كان هدف القرآن في أول الأمر هو تبيان الفرق بين الإيمان والكفر خاصة في السور المكية، ثم أن محمد عليه الصلاة والسلام بدأ بناء دولته بالهجرة ثم الدعوة إلى المؤاخاة و تبيان أحكام الدين، كما أرسل عدد من الرسل إلى الحكام والملوك لشرح الرسالة، وهو نفس الشيء الذي قام به الشيخ عندما أرسل عدد من الرسل لمختلف الأقاليم الغربية في إفريقيا، وبعد ذلك جاء الأمر بالجهاد في سبيل إرساء قواعد الدين ومحاربة الشرك، إقامة الدولة الإسلامية.

3- الحركة الشعرية:

لم يتخل الشعر عن مكانته في منطقة غرب إفريقيا، بل لعب نفس الدور الذي لعبه الشعر في الجاهلية وأثناء دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وكذا المراحل المختلفة للدولة الإسلامية، فلعب الشعر دور الداعي للجهاد، المؤيد للدعوة و الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر، وكان علماء المنطقة من السابقين لاستعمال الشعر في مختلف مجالات الحياة الدينية، الثقافية و السياسية منها لما له من وقع في نفسية الفرد الإفريقي، وكان نظم الشعر يسير بنفس الطريقة التي كان ينظم بها وقت الجاهلية.

وكانت القصيدة تبدأ بالوقوف على الأطلال ثم يصف مراحل الحياة، لينتقل بعد ذلك للزهد ثم يخلص إلى مدح ومدوحه.

و خير مثال لذلك شعر الأمير محمد البخاري بن عثمان دان فودي بمدح عمه الشيخ عبد الله دان فودي قائلاً:

أصحوت أم هاجت هواك منازل

دار عهدت بما الحلول و كل من

و لقد وقفت برسمها مستخيرا

لله درك هل وقوفك نافع

فده الديار و ذكر أجدان الهوى

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الزهد قائل:

و أسلك طريق أولي الهداية و اغتنم

و أزهد عن الدنيا فإن نعيمها

و أبغ السيادة بالعلوم فما استوى

صرف بقايا العمر في تحصيلها

و اركب جواد الجحد فيه فما استوى

و تنحى عن أهل الدعاة و كل من

و أصحاب أولي العزم الهداة فإنهم

ثم ينتقل الشاعر إلى ممدوحه قائلا:

لقد حباك الدهر شيخا ماله

أعني إمام العصر عبد الله من

شيخ العلوم خديجها تبعها

علم الهدى سعد الزمان عماده

ذو شدة في دينه متواضع

علامة القرآن حاوي السبق في علم

ويعتبر المدح من أبرز أنواع الشعر، لما له رواج كبير و اهتمام بالغ مثل مدح الرسول، لأن زعماء الدولة كان همهم الأول إعلاء شأن الدين، و إظهار مبادئه العظيمة بين الناس و تغيير سلوك المجتمع إلى التعاليم الإسلامية التي تسمو بالبشرية و تنفيها.

و تجدر الإشارة إلى أن الشعراء كانوا من مختلف طبقات المتعلمين، و هم في مواقع الدولة المختلفة مثل الوعاظ والقضاة و الوزراء و قادة الجيش و المدرسين و أئمة المساجد و رجال المهنة، بدون عناء و هو تغيير ظاهر في كل أنحاء إفريقيا التي وطأها قدم الإسلام حتى وسط الدول ذات الأقليات المسلمة، و فقط تطرق لغرب إفريقيا كنموذج.

وكان شعراء المدح يختلفون عن الشعراء العرب في الشرق الذين يمدحون الأمراء و الخلفاء للتكسب بالشعراء، أما شعراء سكتو فإن مكانتهم الاجتماعية لا تسمح لهم بذلك لأن منهم الوزراء و كبار العلماء و رجال الدولة.

وما وصل إلينا من شعر المدح في تلك الفترة قليل و هو ينحصر في الآتي:

1. مدح الرسول صلى الله عليه و سلم.

2. مدح الأمراء و الوزراء.

3. مدح الأولياء.

4. مدح قادة الجيش الذين يحققون الانتصارات للإسلام.

و أيما كان الأمر، فإن الغرض من المدح هو إظهار ما يتحلى به الممدوح من الصفات العظيمة و المحامد و المكارم ليتأثر بذلك الآخرون، و لا يمدحون للتكسب كما أشرنا إلى ذلك سابقا مثل ما كان يفعل المتنبي و الحطيفة و الفرزدق و جرير و بشار و غيرهم، و قد وضع مؤرخو الأدب الشعراء النيجريين في تلك الفترة في ثلاث مجموعات.

المجموعة الأولى التي وصلت إلينا أشعارها هي:

1. الشيخ عثمان دان فودي.

2. الشيخ عبد الله دان فودي.

3. الشيخ سلطان بيلو بن عثمان دان فودي.

4. السيدة أسماء بنت عثمان دان فودي.

5. السيدة مريم بنت عثمان دان فودي.

6. الشيخ عبد القادر بن المصطفى.

هذه المجموعة هي صاحبة الريادة في الأدب و الشعر في دولة صكة(13).

4-الدور الثقافي للمحاضر:

لا يمكن الحديث عن النشاط الثقافي في منطقة ما دون الحديث عن المحاضر التي تعتبر الرافد الأساسي للمنطقة ، وإذا تحدثنا في السابق عن الدور الثقافي و العلمي من خلال دول مستقلة ذاتيا نوعا ما ، فإننا سنحاول في هذا الباب من المبحث أن نتطرق لنشاط المحاضر في هذا المجال في موريتانيا التي كانت تحت نير المستعمر الفرنسي، ومن خلال ما سيأتي في البحث نلاحظ ذلك الدور الكبير الذي لعبته المحاضر في موريتانيا في سبيل نشر الدين الإسلامي و الحفاظ عليه، وكذلك تعليم اللغة العربية و باقي الميادين المعرفية ومن بين أهم هذه المحاضر نذكر محضرة (أو حضرة) الشيخ محمد فاضل في منطقة الحوض، مدرسة الشيخ ماء العينين في إدرار ومنطقة شمال موريتانيا ومحضرة الشيخ سعد أبية وكذلك محضرة الشيخ سيديا ياب في منطقة الجنوب والجنوب الغربي الموريتاني وكذلك محضرة الشيخ التراد بن العباس في منطقة الحوض الشرقي وقد شكلت المحاضر التي أقامها أقطاب القادرية الأوعية التي يتلقى فيها أبناء الطريقة خاصة والشعب الموريتاني عامة علومهم ومعارفهم.

ولقد حاول الشيوخ بفضل نشاطهم المتواصل أن يؤسسوا مجموعة كبيرة من المحاضر في كل أنحاء التراب الموريتاني، وأن يجمعوا في هذه المحاضر مجموعة من العلماء ذوي الاختصاصات العلمية المتعددة.و كان حضورها فعالا في الإنتاج الثقافي في البلاد خاصة في القرن الـ 19 فكان أشياخها فقهاء بارزون وأصحاب محاضر كبيرة كما كان إنتاجها الفكري والفقهية والأدبي عم البلاد سواء عن طريق مؤلفاتها أو عن طريق محاضرتهم الكثيرة الانتشار(14).

ومن أهم الأعلام الذين بذلوا جهودا مضيئة في سبيل العلم نذكر الشيخ محمد فاضل و نظرا لغزارة العلمية وسعة ثقافته، فقد استطاع أن يؤسس لعطاء ثقافي و علمي من خلال تشكيل محضرة الشيخ محمد فاضل ومحاضر أبنائه من بعده التي بقيت تعمل بتوجيهاته(15). وقد عمل على نشر علمه لباقي

مناطق موريتانيا، فقد أرسل أبنائه الثلاثة في كافة أنحاء موريتانيا وحتى خارجها، ليعلموا الناس دينهم ابتغاء الدار الآخرة..

وقد كان للشيخ محمد فاضل مؤلفات قيمة ، وقد تعددت المحاضر بعد وفاة الشيخ محمد فاضل بتعدد بنيه وأحفاده وإن تفاوتت بشكل ما بين أحجامها وعطاءاتها، ولعل من أهم هذه المحاضر المتأخرة زمنيا تلك التي أسسها الشيخ التراد بن العباس بعد استقراره في منطقة اكوينيت في الفترة (1933/1945)(16) وتخرج منها علماء ما يزال بعضهم حيا متشبعاً بآراء المدرسة التراثية.

ازدهرت هذه المؤسسات وازدهر معها العطاء الثقافي في موريتانيا حتى ظهر من بين أهلها فطاحله علماء وأدباء لا يقلون شأنًا عن مشايخ التنوير في الشرق العربي(17) . وقدم هؤلاء العلماء مجموعة كبيرة من التأليف والمصنفات التي تنم عن سعة إطلاع أصحابها. كما كانت هذه المؤلفات هي الأوعية العلمية التي اضطلعت برسالة التعليم في موريتانيا، مما ساعد هذه المحاضر على وضع الأسس العلمية التي اعتمدت عليها البلاد كما عرفت ازدهارا عظيما في عهد الشيخ سيديا الكبير وابنه محمد الذي ساهم مساهمة فعالة في جعلها تستمر في بث إشعاعها الثقافي والتعليمي بوصفها واحدة من أشهر محاضر القادرية في بلاد شنقيط، الأمر الذي مكّنه من إتباع طريقة حديثة في التدريس بمحضته مثل إلقاء الدروس حسب جدول زمني محدد ومرسوم وجعل الدروس تشمل جوانب مختلفة من العلوم كتدريس المنطق ، إلى جانب الأدب والفقه والمعارف الشرعية الأخرى وفي هذا السياق ، كان يعقد اجتماعات دورية مع الأستاذة والوجهاء ليتدارس معهم المشاكل المطروحة وأخذ يجلب الكتب النادرة من المغرب والسنغال مما جعل مكتبة المحضرة تأخذ نفسا جديدا مع قائمة الكتب النادرة والنفيسة التي جلبها لها ووفرت لطلاب محضته فرصة الإطلاع على بعض نفائس الكتب التي سمعوا بها إلا أنه لم يكن بمقدورهم الحصول عليها لغلائها وبعدهم عن أماكن توفرها، وقد استعاد من اقتنائه لتلك الكتب ليس فقط بما يتعلق بالعلوم الشرعية والأدب بل أنه تمكن من خلالها من الإطلاع على أحوال العالم في ذلك الوقت السياسية والاجتماعية والثقافية.

أما فيما يخص محضرة الشيخ ماء العينين ، فإنه بعد أن قضى المرحلة الأولى في تحصيل العلوم وتلقى التربية الروحية على يد والده الذي أذن له شيخه ووالده بالرحيل إلى منطقة جديدة بعيدا عن منطقة والده ، دخل الشيخ في المرحلة الثانية ، وهي مرحلة العطاء العلمي والروحي وتمثل مرحلة العطاء العلمي

وتظهر في كثرة تأليفه العلمية وما تتلمذ عليه من الجموع الغفيرة من البشر بمدرسة بالسمارة حيث أصبحت كعبة للطلاب وسوق العلم والأدب رائحة حتى فاق عدد تلاميذ عشرة آلاف.

وكان لاسمارة مميزات خاصة في قلب الصحراء الغربية حيث كانت ربطا روحيا وفكريا تنشر فيه المعارف الدينية واللغوية ومركزا للجهاد ونظرا لما بمحضرة الشيخ ماء العينين من مكانة عظيمة في موريتانيا أطلق عليها اسم مدرسة وانطلاقا من حرص الشيخ على الهوية العربية والدين الإسلامي باعتباره الوحدة العقائدية التي يلتف حولها المسلمون ، فجر الشيخ فكرة الجهاد، ومثلت اسمارة الوجه الأكثر نضاعة وأوضح وأكثر أهمية من حيث أنها خرجت مريديها على فكرة كراهية الاستعمار الأجنبي وكما كانت اسمارة جامعة علمية ومكتبة كان لها إشعاعها الرائدة في هذه الصحراء المترامية الأطراف ورغم وقوعها تحت قبضة الاستعمار سنة 1910 وفقدتها بذلك الكثير من ذخائرها العلمية وكنوزها الدينية غير أن ذلك لم يفقدها قوتها الثقافية وإشعاعها الديني بل أصبحت تشع به على الكثير من المناطق الشمالية التي استقطبت الكثير من الزعماء في رفع الإشعاع الثقافي ضد الغزو الفكري الاستعماري.

خاتمة:

بالرجوع إلى ما سبق ، يخلص الدارس إلى الاستنتاجات التالية:

- 1- شهدت منطقة غرب إفريقيا تطورا شاملا تميز بتبني أهلها أفكارا جديدة ونشاطات لم يعرفوها من قبل ، فاعتنق غالبيتهم الدين الإصلاحية و أجاد علماءها اللغة العربية وأسهموا في الكتابة و الإبداع ، كما تراجعت التقاليد الوثنية وتقلص محيط الاستسلام لمظاهر الطبيعة.
- 2- انبثقت نظم جديدة في الحكم مستوحاه من النظم العربية الإسلامية ، كما حج بعض ملوك غرب إفريقيا وجلبوا معهم الكثير من التقاليد في الاستشارة و الوزارة و البلاط.
- 3- يبرز دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا في إسهامات العلماء و الفقهاء في تطوير العملية التعليمية ، وكذا تأليف الكتب و تشييد المساجد وبناء المدارس وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن هؤلاء العلماء كان لهم دورا رائجا في نشر العلم و الثقافة العربية الإسلامية، إضافة إلى تقلدهم مناصب في الدولة أهمها المناصب القضائية في عهد ملوك مالي ن سنغاي و شمال نيجيريا في فترة حكم عثمان بن فودي.

4- انعكست الآثار الإيجابية للحياة العلمية على الجانب الاقتصادي بصفة عامة وعلى التجارة بصفة خاصة ، خصوصا إذا علمنا أن النشاط التجاري ساهم بقدر كبير في ازدهار الحواضر و النشاط العلمي . وعليه ، فالرخاء الاقتصادي كان وراء تفهقر ظاهرة الفقر، وساعد على الإنفاق في بناء المساجد والمعاهد.

5- إن غرب إفريقيا كانت مركز إشعاع أفرزت حضارة هي امتداد للحضارة العربية الإسلامية في شمال إفريقيا بحيث ساهمت في نشر الإسلام و التعريف به في باقي بلدان القارة الإفريقية، ولعل الحواضر و المراكز العلمية و المدن التاريخية شاهدة على ذلك.

6- كانت شعوب غرب إفريقيا -بفضل الروابط و العلاقة مع شمال الصحراء- تبني حضارة تضاهي بها الحضارات المجاورة بفضل العلوم و المراكز العلمية التي كانت منتشرة، حتى أن تجارة الكتب كانت رائجة أكثر من تجارة الذهب.

7- بالرغم من دخول منطقة غرب إفريقيا مرحلة الانحطاط خلال القرنين 17/18م إلا أن نهاية القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر شهدت حركة إحياء العلم قام بها علماء وزعماء في العديد من مناطق غرب إفريقيا لا سيما تلك التي ظلت على وثنيته، وكان من أبرزهم عثمان بن فودي(17).

8- تشاء الأقدار أن تتوقف مسيرة المجتمعات الإفريقية في مواصلة بناء كياناتها الوطنية شبيهة بتلك التي تبتتها أوروبا بعد الثورة الفرنسية سنة 1789 م بسبب رواج تجارة الرقيق و التوغل الأوروبي في إفريقيا بحيث ساهم هذان العاملان في اختفاء هذه الإمبراطوريات و الممالك ،إضافة إلى الحروب الطاحنة فيما بينها و التي كان يغذيها أعوان الإمبريالية من جهة، و الغزو الأوروبي من جهة أخرى. وعليه ن يذكر الرئيس الكيني الأسبق جومو كينيتا في مؤلفاته: "أن الأنظمة السياسية الإفريقية كانت أكثر ديمقراطية من النظم السياسية الأوروبية قبل التواجد الأوروبي في إفريقيا(18)"

الهوامش:

1- هو عثمان بن محمد بن صالح بن هارون بن محمد بن رجب بن فودي، وكلمة فودي تعني الفقيه في لغة الهوسا وهم سكان المناطق الشمالية في نيجيريا الحالية. وقد ولد الشيخ عثمان في سوكوتو سنة 1754م وتنحدر عائلته من قبائل الفولاني الذين هاجروا إلى نيجيريا في السابق قادمين من منطقة أعالي نهر السنغال في جمهورية السنغال الحالية، وكانت عائلة الشيخ عثمان قد توارثت العلم و الثقافة منذ مدة قبل ولادته، وهذا ما أتاح له فرصة التعلم على والده مبادئ علوم العربية أصول افقه وحفظ القرآن الكريم، كما تتلمذ على يد الشيخ جبريل بن

عمر الذي يعتبر مكن أكبر علماء السودان الوسط. وتمتد مرحلة العمل على نشر الدعوة من سنة 1785 إلى غاية 1803م. حيث تكاثر أنصار الشيخ بن فودي بعد استقراره في مدينة سوكونو التي أسسها وجعلها عاصمة لحركته. تزعم الشيخ عثمان بن فودي حركته الجهادية و انتصر على خصومه أمراء بلاد الهوسا وكون فيها دولته الإسلامية تحت إمارته، وقد استمرت فترة جهاده من سنة 1803 على سنة 1810 ن تلقب الشيخ عثمان بلقب أمير المؤمنين في دولته الفترة بين 1810 على 1817 حيث وافته المنية. و للشيخ عثمان حاليا في الجامعات النيجيرية وعند الخواص مجموعة كبيرة من الرسائل في مواضيع شتى ومن أهم تلك المواضيع نذكر:

أ-رسالة في أصول الولاية

ب-رسالة في إحياء السنة وبيان البدع

ت-رسالة في الجهاد

للمزيد من التفاصيل أنظر: زبادة، عبد القادر: دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب و المسلمين. ديوان

78-81، ص2010 المطبوعات الجامعية، الجزائر،

2-تأسست مدينة تمبكت و الى القرن الحادي عشر، وقد أسسها الطوارق (إبغمراشن) حينما اتخذوا من مكانها مشتى لهم في حدود ذلك التاريخ، ويقال أن اسمها اتخذ من اسم العجوز التي كان الطوارق قد عهدوا إليها بالبقاء في ذلك المكان، حينما يغادرونه في رحلتهم الصيفية، وكانت تحرس لهم بيوتهم ومخازنهم، ثم تحول المكان لسوق ن وفي أيام كنان موسى ملك مالي (القرن الرابع عشر) بني له فيها قصر ضخم، كما أسس أول مساجدها المسمى (دنقيرير)، فبدأت حركة الهجرة للمنطقة وزاد سكانها فأصبحت المدينة تجمع بين التجارة و العلم وقد بلغت مرحلة الأوج في الفترة الممتدة بين 1496 و1591 حيث اتخذت المدينة شكل المدن العصرية في نمط هندستها الذي يشبه البناء المغربي- الأندلسي. انظر عبد القادر زبادة: الحضارة العربية و التأثير الحضاري في إفريقيا جنوب الصحراء ، المؤسسة الوطنية للكتاب،

الجزائر، 1988، ص61 وللمزيد من التفاصيل انظر Robert Cornevin. Histoire

del'Afrique, Payot, Paris, p356t ,

3-ومما تجدر الإشارة إليه أن مدينة تمبكت كانت محطة للقوافل التجارية في غرب إفريقيا ن كما كان يقصدها الطلاب ، وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن مدينة تمبكتو تبوأ مركز الريادة في مسألة انتشار العلم و الثقافة و العمران و التجارة.

للمزيد من التفاصيل أنظر

Robert Cornevin ,op.cit.p356

4-البكري أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د.ت. ص 287- 288.
5-عبد القادر زبادة، الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في غرب إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر؟، 1989، ص62-63

6 - الشيخ بوعمران، معجم مشاهير المغاربة، الجزائر، 1995، ص505

7- يذكر الشيخ أحمد بابا التمبكتي أن مكتبته كانت تضم حوالي ألف وستمائة مجلد وهي أصغر مكتبة في أسرته، ويصف لنا عن الشيخ محمد بن ابي بكر التمبكتي المعروف ببيغيع من خلال كتابه نيل الابتهاج حالة العلم في وقته فيذكر: "...أضف إلى ذلك =محبة العلم ومحبة أهله وكان له صبر عظيم مع طلبه العلم كان يعير كتبه النادرة و الثمينة في كل المجالات دون أن يطلب ردها ابتغاء لمرضاة الله وأحيانا ما كان يطلب من الطالب كتابا فيعطيه له دون أن يعرف من هو"، ومن دلائل أهمية العلم في المنطقة هو ما ذكره الوزان أن الكتب و المخطوطات كانت تباع وكانت تجارة رابحة حيث أن ربحها أكثر من ربح السلع التجارية الأخرى.

- أنظر، جون هانويك، تراث المخطوطات الإسلامية لتنمبكتو، تر سوزي أباضة، مجلة أفريقية - عربية، مركز البحوث العربية، القاهرة، العدد 06، 2003
- 8- مطير سعد غيث أحمد، الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، دار المدار الإسلامي، لبنان، 2005، ط1، ص273
- 9- أحمد محمد الكائمي، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، الزهراء للإعلام، القاهرة، ط1، 1987، ص28
- 10- هو محمد بيلو بن عثمان بن فودي، درس على أبيه بالدرجة الأولى، كما درس أيضا على يد آخرين في بلده. وقد عرف بسعة الإطلاع على علوم عصره وخاصة الفقهية و اللغوية . وفي سنوات الجهاد الذي قام به والده الشيخ عثمان كان بلو بمثابة الساعد الأيمن له، خلف والده في الحكم سنة 1817م ودام حكمه واحد وعشرين سنة، كما زار عدد من العلماء و راسلوه منهم أحمد البكاي الكنتي وكذلك الحاج عمر الفتوي الذي كانت له صداقة متينة مع محمد بيلو، باعتباره سلطانا إسلاميا وعالما كبيرا، ومن التصانيف الهامة التي تركها بيلو كتابان هامان هما:
- إنفاق الميسور في بلاد التكرور
- مجموعة الرسائل. أنظر عبد القادر زبادة: دراسة عن أفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب و المسلمين ديوان المطبوعات - 86. ص2010 الجامعية، الجزائر،
- 11- عثمان برايما باري، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، دار الأمين للطباعة والنشر، جمهورية مصر العربية، ط1، 2000، ص119،
- 12- شوقي الجمل، الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا، مجلة المناهل، عدد 7، نوفمبر 1976م، ص145.
- 13- آدم إبراهيم أحمد، الثقافة العربية الإسلامية في دولة صكة الإسلامية، منشورات جامعة إفريقيا العالمية، المؤتمر الدولي حول الإسلام في إفريقيا، 26/27 نوفمبر 2006، ص347-350
- 14- محمد الأمين التوسيط في معجم بلاد شنقيط، القاهرة، دت، ص75، 76.
- 330، ص2000 عمر أحمد سعيد: انتشار الإسلام في إفريقيا بين السيف و القلم، القاهرة - 15
- 16- إبراهيم علي طرخان، مملكة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1973، ص148، 149
- Smith, S. Atlas de l'Afrique . Edition Autrement, Paris. 2005, p7917-
- 18 - Kenyata , Jomo. Facing Mount Kenya. Présence Africaine, Paris, 1960